الفصل الأول

الأسطورة

الأسطورة كلمة يحوطها سحر خاص ... يعطى لها من الامتداد مالا يتوفر للكثير من الكلمات فى أى لغة من اللغات ... إذ هى توحى بالامتداد عبر المكان وعبر الزمان ... توحى بالعطاء المجنح للعقل الإنسانى وللوجدان الإنسانى .. توحى بالحلم حين يمتزج بالحقيقة ، وبالخيال وهو يثرى واقع الحياة بكل ما يغلفه ويطويه وفى إسار من الوهم يخفيه ليخلق منه دنيا جديدة هى شعر الاحداث ، وتهويم الطموح الإنسانى نحو المعرفة ونحو المجهول ...

وكل الشعوب عرفت الأسطورة والتقت عندها ... فهى تراث الإنسان حيثما كان وأينما كان ... على بعد المكان ، ، وعلى اختلاف الزمان يلتقى الإنسان بالإنسان عند نسيج الأسطورة المتشابه الموحد ... ومنه يستمد الإنسان عطراً لا ينمحى ، يذكره بقدرته على الخلق والمحاكاة والإبداع .

ومن الأسطورة تسربت ألوان الأدب ومنها تحرر فكر الإنسان ليخلق مختلف أشكال الأدب ... فالبشرية لم تعرف أقدم ولا أعرق من الأسطورة لتحكى أحلامها وآمالها ، وترسم دنياها المليئة بالتطلع والشادية إلى المعرفة ... ومن هنا كانت الأسطورة فى البدء منبع الإلهام الأدبى ، وفى النهاية دافعاً إلى علوم حديثة كثيرة كعلوم الأنثروبولوجي والأثنولوجى والسيكولوجي .

ومن المدهش أن يسمى الاهتمام بالسحر والعادات القبلية والطقوس الدينية والاضطرابات الإنسانية علوماً . ولكن مخيلة الإنسان وما كانت لتتم لولا هذه العلوم التى اعتبرت مفاتيح الوصول إلى كنوز النفس الإنسانية الثرية والغامضة معاً.

هذه الأهميـــــــة للأسطورة تجعلنا نقف أمام السؤال الذى يجب أن يكون هو نقطة البدء – هذا السؤال هو – " ما هى الأسطورة ؟ " .

ولكن هذا السؤال البسيط لـــه أكثر من أجابه ... فالأسطورة هى محاولة الإنسان الأول فى تفسير الكون تفسيراً قولياً ... والأسطورة هى دين بدائى .

والأســـــطورة هى الجزء القولى المصاحب للشعائر الدينية الممارسة بالرقص أو الحركة فى الأديان البدائية الأولى .

والأسطورة هى محاولة لتفسير ظواهر الوجود وربط الإنسان بها ...

تعـــددت التعريفات أذن ... وذهب كل عالم إلى رأى ، واتجه كل دارس على تفسير ... ولكن الكل يلتقون عند ملاحظات محددة وواضحة .

فالباحث هردر وهو من دارسى التراث الشعبى يقول ...

" أن الحكايـــات الشعبية بأسرها ، ومنها الحكايات الخرافية والأساطير ، هى بكـــل تأكيد بقايا المعتقدات الشعبية ، كما أنها بقايا تأملات الشعب الحسية وبقايا قـــواه وخبراته ، حينما كان الإنسان يحلم لأنه لم يكن يعرف ، وحينما كان يعتقد لأنـــه لم يكن يرى ، وحينما كان يؤثر فيها حوله بروح ساذجة غير منقسمة على نفسها " .

ويقول الكاتب الالمانى فريدرش فون ديرلاين فى كتابه الحكاية الخرافية :

" من السهل أن تعثر على بذور الحكاية الخرافية فى جميع أنحاء الأرض ، فنحن نعثر عليها عند شعوب الحضارات القديمة ، كما نعثر عليها عند البدائيين فى عصرنا الحاضـــر ، وقـــد كانـــت بعض الشعوب تمتلك موهبة خاصة فى خلق الحكايات الخرافية مثل الهنود والعرب والكلتين ، إذ صاغوها فى أكمل صورة فنية لها ، كما غذوها بخيالهم وكسوها بالبهاء والروعة ... " .

ويقول ثيودور بنفي صاحب الكتاب المشهور لدى دارسى الأساطير والأدب القديمة والذى درس فيه الأصول الاسطورية لبعض الحكايات والأساطير الهندية تحت عنوان : بنتشا تنترا ...

" نشأت أنواع الحكايات الخرافية والأسطورية فى بلاد الهند وهى فى أصلها حكايات بوذية كانت تحكى لأغراض تعليمية ثم انتشرت فى أوربا عن طريق العرب " .

من هذا نرى أنه ليس هناك فاصل مكانى أوزمانى بين موروث الإنسانية من أساطير ، وإن الأسطورة لها جذور فى العالم القديم والعالم الوسيط بل ولها جذور فى كل آداب الدنيا ولدى كل شعوبها ...

ويذهب بعض الدارسين إلى أنه لا تكاد توجد فكرة أسطورية ليس لها شبيه فى مكان آخر وزمان آخر على اختلاف واضح بين الزمانيين والمكانين .

ويحدد الأخوان جريم وهما من أوائل من جمع الحكايات الخرافية فى أوروبا ولفت النظر إليها ، يحددان هذا التفاعل بين الشعوب فى الأساطير والحكايات الشعبية والخرافية فيقول وليم جريم :

" أن التشابه بين الحكايات الخرافية رغم ما يفصل بعضها عن بعض من مسافات زمنية ومكانية بعيدة ، ليس أقل مما بين الشعوب المختلفة من أمور متشابهة رغم انفصالها ، ويرجع بعض هذا التشابه إلى تماثل الأفكار الأساسية عند هذه الشعوب وإلى وسيلتهم فى عرض شخصيات بعينها ، كما أن البعض يرجع إلى ما عندهم من وقائع متشابهة وإلى طريقتهم فى إيجاد تفسير لها " .

من الممكن إذن أن تتشابه أساطير الشعوب ، فى الأفكار الأساسية بل ربما فى بنية الأساطير نفسها . وحتى الألفاظ المفردة يسهل مقارنة بعضها ببعض على الرغم من انعدام صلة القربى بينها وذلك عن طريق تقليدها لأصوات الطبيعة . وقد

يكون التقليد مختلفاً بعض الاختلاف كما قد يكون متفقاً تمام الاتفـاق وقد نسند هـذا الاتفاق إلى الصدفة ، ولكن الحقيقة أن الأسطورة تحدد القرابة الحقيقية بين النسيج البشرى كله فى كل مكان وكل زمان ...

هـذه الجولة حول الآراء والأفكار تثبت لنا أهمية الأسطورة وأهمية دراستها ، وفى الوقـت الـذى نـرى فيه علماء الغرب يهتمون اهتماماً واضحاً بالأسطورة ويحـاولون رد التفكير البشرى كله إلى هذه البداية الأولى لحركة العقل حين أراد التخـيل وحـين أراد التعـبير نجد دارسينا العرب ما زالوا فى المراحل الأولى لهذه الدراسـة . ونعجـب لسر تخلف هذه الدراسة فى أدبنا العربى وسر تخلف العلوم المصاحبة لها كعلوم الأجناس والعادات فى دنيا الدراسات العربية ...

الأسـطورة فى اليونانية Mythos ميثوس ... وهى فى الإنجليزية Myth ميث ... وعلى ذلك فأن المعنى فى اللغتين هو " الشىء المنطوق " .

وهـنا نلاحظ القرابة بين هاتين الكلمتين وبين كلمة Mouth موث الإنجليزية الـتى تعنى فم ... فمعنى الأسطورة إذن هى الكلام المنطوق ، أو القول ، ولكن أى قول ؟ .

يذهب الدارسون إلى أنه القول المصاحب للعبادة والطقوس الدينية ... فهى إثـبات للجانـب الكلامى من الحركة فى العبادة قبل أن تصبح هى نفسها حكاية حول هذه الطقوس أو منبثقة من هذه الطقوس ...

والسـؤال الآن هـو هل بقيت العبادات الوثنية العربية وهل احتفظ تاريخ العـرب بهـا ؟ وبالـتالى هل بقيت الأعمال القولية المصاحبة لها ، أو هل بقيت الأسطورة العربية فى شكلها الأول ؟ .

والإجابة على السؤالين بالنفى ، وهذا يعنى أن المصادر العربية لم تعن بالحفاظ عـلى الأسـطورة فى مرحلتها الأولى لأنها عنيت على العكس بتدميرها وإخفائها

والقضـــاء عـــلى الأسطورة فى مرحلتها الأولى لأنها عنيت على العكس بتدميرها وإخفائها والقضاء عليها فى محاولتها لطمس الوثنية والقضاء عليها ....

وعـــلى هـــذا نستطيع أن نقول أن العرب لم يحتفظوا لنا بالأساطير الطقوسية ... أى تلـــك التى تعد الترجمة القولية للطقوس الوثنية ... فمع القضاء على الوثنـــية قضـــى تماماً على كل ما صاحبها من طقوس حركية وقولية معاً ... فى الحقـــيقة اســـتطاع الوجدان العربى أن يهرب بأصداء لكثير منها ويتسلل بها عبر التاريخ ... ولكن هل اختفت آثار هذه الأساطير تماماً ....

فبالنســـبة للأسطورة التعليلية وهى تلك التى تحاول أن تفسر الظواهر الكونية حولهـــا وقبـــلها فننســـبها إلى قوى غير ظاهرة فى حكى روائى يربط بين الفكرة والحركة ويجسد الظواهر لتصبح كائنات متحركة تؤثر وتتأثر بغيرها فمما لا شك فيه أن كتب التاريخ وكتب الأدب العربى وخاصة كتب التفسير قد حفلت بالكثير مما هو أصداء لهذه الأساطير فمن ذلك مثلاً ... أسطورة خلق الكون ، وما أصل الماء والهواء والطين والنار ، والبرق والرعد والمطر والنور وكيف تتوالد بعضها عن بعـــض ولم يتداخل تأثير بعضها فى البعض الأخر ؟ ومنها كذلك حكايات السحر وأســـاطير الكهانة ، وأحاديث الروحانيات فيما بعد وإمكانات أصحاب الاتصال الروحى فى التأثير على المكان بل وعلى الزمان ...

أمـــا الأسطورة الرمزية فهى الوليد الطبيعى لأسطورة التعليل إذ تتحول القوة إلى رمز مجسد وتخلع صفات الإنسان على الآلهة أو الابطال الخرافيين ، ويمتزج فى بعضـــها قد رأت الإنسان المحدودة بطاقات هائلة تؤكد قدرته على مواجهة المجهول والتغلب عليه . من ذلك مثلاً ... الأساطير التى تمثل معنى أمومة الأرض ومعنى ارتـــباط الإنســـان بها ، والأساطير التى تجسد العبور ، أى عبور البطل إلى مرحلة النضـــج ، والأساطير التى تتحدث عن رمز موت البطل وعن رمز وولادة البطل

والمتبقيات فى السير الشعبية والملاحم العربية تشير إلى تأثر كبير بهذه الأساطير وما يتبقى منها فى ضمير أصحاب السير والملاحم .

ويقترب جداً من الأسطورة الرمزية ، تلك الأسطورة التى يضعها الباحثون تحت إطار الأسطورة التاريخية . وفى هذا اللون من الأساطير يتم ارتفاع البطل بحكم قدراته أو بحكم أدواته إلى مصاف أصحاب القدرات الخارقة فيأتون بالمعجزات ويحققون لأنفسهم أو للرمز الذى يرمزون إليه الانتصار على القدر أو على القوى المعرفة للإنسان وبعض الأساطير تحمل بالفعل لابطالها عمق الرمز فى الانتصار على ما يضايق الإنسان ويغل قواه ويحد من قدراته ، بينما تحمل بعض الأساطير الأخرى تمجيد أعمال الإنسان القوى ، متخيلة فى منطقها ومكثفة إلى بؤرة تتجمع حولها كل ملامح العظمة المترسبة فى نفس الإنسان فى بحثه عن الخلود وبقاء الصيت .

هذه الأنواع المتعددة من الأعمال الأسطورية التى درسها رجال علم الأسطورة وقسموها وربطوها بالتاريخ الأول للإنسان ، ماذا بقى منها للإنسان العربى من تراثه ... ؟ .

الواضح أنه لم يبق إلا أصداؤها وآثارها أما هى فقد اختفت فى ضمير التراخ فما دون وبقى أنما لم يبق بعد ظهور الإسلام ، وظلت هذه الأصداء عند رجال الأدب مجرد أخبار تسللت إلى كتب التاريخ أما عن جهل أصحابها بالتحقيق العلمى للأبحاث فتقبلوا الغث مع السمين . وكان الغث عندهم هو هذه الحصيلة الضخمة من أصداء الأساطير والحكايات الخرافية . وأما تسللت عن عمد أو قصد أصحاب هذه الكتب أو الرواة الذين نقلوا عنهم إدخال هذا اللون من الأخبار لإفساد التاريخ الحقيقى بما أسمه بالإسرائيليات ، إيماء إلى الأغراض فيها وفى روائها ....